

التناظر في القرآن الكريم - سورة البقرة أنموذجا

Symmetry in the Noble Qur'an - Surat Al-Baqarah as a model

د. درديري هجيرة*

تاريخ استقبال المقال: 2022/08/19

تاريخ القبول: 2022/08/21

تاريخ النشر: 2022/08/25

ملخص: نحاول في هذا البحث المتواضع التطرّق إلى ظاهرة قرآنية قلّما أفرد لها الباحثون دراسة خاصة، ألا وهي ظاهرة "التناظر" في القرآن الكريم، ولعل سبب ثنيهم عن ذلك يرجع إلى كون هذه الظاهرة تتقاطع إلى حدّ كبير مع ظاهرة "التكرار". ونعتقد أننا لسنا في حاجة إلى الخوض في هذا الموضوع لأنّ علماء التفسير والبلاغة قد أفاضوا فيه دراسةً واستقصاءً. لكن مناسبة البحث تستدعي الوقوف على أسرار هذه الظاهرة التي تعدّ في حدّ ذاتها إعجازاً، إذ كيف لآية أو لفظ أن يتواتر بانتظام سواء في سورة بعينها كما هو الحال في سورة "الرّحمن"، حيث تكررت الآية الكريمة ﴿فَبَآئِيَ آلاءِ ربكما تكذبان﴾ واحداً وثلاثين مرّة، أو قصصاً لرسل وأنبياء مع أقوامهم في سور عديدة كما هو الحال مع إبراهيم ولوط عليهما السلام مع قوميهما، أو آدم عليه السلام مع إبليس دون أن يحدث في نفس القارئ نفورا أو امتعاضاً، باعتبار أنّ النفس الإنسانية توافقة إلى التجديد منجذبة إليه، راغبة عن التكرار - كما يبدو للوهلة الأولى - نافرة منه، حيث إن التناظر ينأى بدلالته عن التكرار، ذلك لأنّه وجه من وجوه الإعجاز القرآني الذي يستدعي التدبّر في ألفاظه ومعانيه التي حبكت حبّكا، حتى لكأنّ الواحدة منها ما خلقت إلّا لتلاحم وتتآلف مع الأخرى، فتصنع هذا النسيج الربّاني الذي عجز البشر أن يأتوا بمثله، ولن يتأتى لهم ذلك حتى ولو كانوا على قلب رجل واحد. ومن شأن "نظرية التناظر" التي تميّز بها القرآن الكريم، أن تبرز الوجه الجمالي الإعجازي الذي يستلطفه الذوق، ويتقبله العقل، وترتاح له الأذن، بل وتندلل له الجوارح كلّها ظاهرها وباطنها، وتنكشف أسرارها، يقول

تبارك وتعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقَشَعَرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سورة الزمر، الآية 23. وهذا ما سنفصله لاحقا.
كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، التناظر، بنو إسرائيل، التكرار، البلاغة.

Abstract:

In this modest research, we try to address a Qur'anic phenomenon that researchers have rarely devoted to a special study, namely, the phenomenon of "symmetry" in the Holy Qur'an. We believe that we do not need to delve into this subject because scholars of interpretation and rhetoric have extensively studied and investigated it. However, the occasion of the research calls for finding out the secrets of this phenomenon, which is in itself a miracle. For a verse, or a word, to be repeated regularly, whether in a particular surah, as is the case in Surat "Al-Rahman", where the noble verse **"Which of the favors of your Lord do you deny"** is repeated thirty-one times, or stories of messengers and prophets with their people in many surahs, as is the case with Abraham and Lot on them Peace with their people, or Adam, peace be upon him, with Satan without causing resentment or resentment in the mind of the reader, given that the human soul is eager for renewal, attracted to it, desiring repetition - as it seems at first glance - to be alienated from it? As symmetry distances its significance from repetition, because it is one of the aspects of the Qur'anic miracle that calls for reflection on its words and meanings.

The one who woven so tightly that it was as if one of them was not created except to cohere and harmonize with the other, thus making this divine fabric that humans have been unable to come up with, and that will not be possible for them even if they are on the heart of one man. The "symmetry theory" that characterizes the Holy Qur'an highlights the miraculous aesthetic face that tastes like, **"the mind accepts, and the ear is comfortable for him, and even all the limbs are submissive to him, outwardly and inwardly, and its secrets are revealed. The skins of those who fear their Lord shiver, then their skins and hearts soften to the**

remembrance of God". Surat Al-Zumar, verse 23. This is what we will discuss later.

Keywords: the Holy Quran, symmetry, Israelites, repetition, rhetoric.

1. مقدمة:

إنَّ ما شدَّني إلى الكتابة في موضوع "التناظر في القرآن الكريم" هو كون القرآن غاية كل مسلم، يتوجب عليه أن يغرف من كنوزه ولآله ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يحاول الإحاطة بعلومه الجمَّة، اهتداء برسولنا الكريم، وقدوة بالسلف الصالح "فالقرآن هو البحر المحيط الذي تكمن في أعماقه الجواهر والدرر، ومن ثمَّ لا يعثر عليها إلا الغواصون" هذا من جهة، ومن جهة أخرى كون التناظر وجها من أوجه الإعجاز اللغوي والجمالي، فقد تحدى العرب في فصاحتهم وبلاغتهم وهم المتفردون في نظم القوافي، وضرب المثل، وسبك الحكم، حتى قيل "أنَّ الشعر ديوان العرب"⁽¹⁾.

لقد "تحدَّى القرآن فصحاء العرب بمعارضته، وطاولهم في المعارضة، ولكَّتهم انهزموا أمام تحدّيه، وأعلنوا عجزهم عن تقليده، لأنَّه يعلو وما يُعلَى، وما هو بقول بشر"⁽²⁾. إنَّ القارئ المتمعن في كتاب الله تعالى، كثيرا ما تستوقفه قصص ومشاهد وألفاظ وصور وأمثال تتكرر في مناسبات شتى، وفي سور عدَّة، لا يجد لها غير المتبحر في علوم القرآن تفسيراً ﴿ولا يعلم تفسيره إلا الله﴾ فيظن ظنَّ جاهليَّة أنَّها تواردت لسهو أو لعجز كما يدَّعي بعض المستشرقين الحاقدين على الدِّين الإسلامي ومن تبعهم من بني جلدتنا⁽³⁾.

¹ يراجع، سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، 1987، ص 231.

² صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط1، 1959، ص 313.

³ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، 1993، ص 314.

فقد تجلّت ملامح التناظر في قصص بني إسرائيل في سورة "البقرة" أكثر منه في سورة أخرى، عدا سورة "المائدة"، ولعلّ السبب يكمن في كمّية التشريع الذي حملته هذه السورة الشريفة من جهة، ومن جهة أخرى "كون المحور الأساسي لها هو بنو إسرائيل، وموقفهم من الدعوة الإسلامية في المدينة"⁽¹⁾.

ومن القصص القرآنيّة التي ورد ذكرها كثيرا هي قصص بني إسرائيل حيث تكررت ثلاث وأربعين مرّة، وتوزّعت بين مكّيّة ومدنيّة في عرض فيّ حميل، وبأساليب متنوعة، وصور مختلفة، محمّلة بالمواعظ، سائّة للضوابط والشرائع. والملاحظ أنّ قصّة بني إسرائيل تناسب ذكرها في السور الطوال أكثر منها في القصار، وقد تماثل عددها في سورتيّ "البقرة" و"المائدة"، إذ ذكرت ستّ (6) مرات، بينما تباينت في باقي السور⁽²⁾. وهذا الخطاب المستهل بـ بني إسرائيل هو موضوع البحث الذي ستخوض فيه.

إنّ المتأمّل في كتاب الله، المتدبّر لمعانيه وتراكيبه، قد يجد صعوبة في فهم المقاصد التي جاء لأجلها، والأحكام التي وضع لها، ومن ذلك مثلا الآية التي نزلت في حقّ بني إسرائيل ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁽³⁾. وقد يقع القارئ في حيرة من أمره، إذ تلجّ عليه أسئلة من قبيل: لماذا قابل الله تعالى عصيان بني إسرائيل وتمردهم على تعاليمه السمحة بكلّ هذه النعم التي أكرمهم بها دون سواهم من الأمم؟ لماذا أسبغها عليهم، وهم من هم في الجحود والكبر؟ فالظلم والمنّ

¹ سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الأصول العلميّة، تركيا، ط 1، 2019، م 1، ج 1-4، ص 27.

² ينظر، محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس، ألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1987، ص 42، 43.

³ سورة البقرة، الآية: 57.

والسلوى وطيبات أخرى، جاءت في سياقات متقاربة ومتباعدة في كنف هذه السورة الكريمة، تجعل عقولنا قاصرة عن تفهّم القصد من وراء هذا اللّين من البارئ تعالى تجاه هؤلاء، قلت، أجدني عاجزة عن تلمّس لطيف أمره في تعامله مع خلقه، والقرآن الكريم كلّ حكمة ورحمة. والمتأمل أيضا في سورة "البقرة" قد تلحّ عليه أسئلة من قبيل لماذا هذا النداء المتكرر "يا بنيّ إسرائيل؟" ولماذا خصّ به الحق تعالى بني إسرائيل دون سواهم، وهل له دلالات معيّنة؟

2. التكرار والتناظر:

2. 1. أسلوب التكرار وفوائده:

قبل الخوض في موضوع "التناظر" فإننا نرى من الأنسب أن نعرّج على أسلوب التكرار وفوائده وأحكامه، نظرا للتشابه الحاصل بينه وبين التناظر. فالتكرار حسبما جاء تعريفه في أمهات الكتب أنّه "مصدر كرر (بدون شدّة) إذا ردد وأعاد، وهو تفعّل بفتح التاء وليس بقياس بخلاف التفعيل"⁽¹⁾. وجاء في تعريف آخر "أن يكرر المتكلّم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى"⁽²⁾. وتتجلّى فوائده في كونه يأتي "تأكيدا للوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد أو أيّ غرض من الأغراض"⁽³⁾. ويأتي التكرار في مواضع عدّة، كأن يكرر الفعل أو الاسم أو الحرف أو الأداة أو الجملة لغرض ما، لكن الغالب عليه هو أنّه يأتي "للتأكيد"؛ أمّا حكمه، فيكمن في كونه فنّ من الفنون البلاغيّة التي تضيف للمعاني والألفاظ قوّة ودلالة، وأمثلة على ذلك قوله تعالى:

"﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾"⁽⁴⁾.

"﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾"⁽¹⁾.

¹ بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار ابن الجوزي، ط1، 2013، ص 603.

² بدوي طبانة، معجم البلاغة العربيّة، منشورات جامعة طرابلس، كلّية التربيّة، مج 2، ط1، 1977، ص 750.

³ المرجع نفسه، ص 750 / ينظر كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي في باب فوائد التكرير، ص 605، 618.

⁴ سورة القيامة، الآية: 34، 35.

﴿لترونّ الجحيم ثمّ لترونها عين اليقين﴾⁽²⁾.
﴿فقتل كيف قدر ثمّ قتل كيف قدر﴾⁽³⁾.

2. 2. التناظر:

أمّا "التناظر" فينظر إلى التشابه الحاصل بين نماذج تعبيرية مختلفة، ويحاول أن يتبين مناسبة الخطاب من حيث سياقاته الدلالية. ولعلّ جانباً من ذلك الإعجاز الجمالي يكمن في الاختلاف الوارد بين سياق وسياق، وإن بدا الأمر على غير ذلك، ولهذا يمكن القول إنّ "التناظر" هو إعادة لفظة بني إسرائيل مع تعليقها مع معان مختلفة يبين عنها جواب النداء، أو جواب الأمر الذي جاءت في سياقه الآية الكريمة.

إنّ "التناظر" وإن تشابهت تراكيبه من جهة، فإنّها تبقى متباعدة من وجوه أخرى. فالتناظر يحيط بنا من كلّ جهة، بل إنّنا نعيش به دون أن نوليه بالا، من ذلك مثلاً: الشائيات الموجودة في جسم الإنسان، بين يد ويد، وعين وعين، ورجل ورجل. غير أنّ هذا التركيب لا يلغي التمايز الموجود بين الطرفين، وشأن هذا التناظر، شأن الآية الواحدة، أو الخطاب المخصص "يستخدم في مقامات مختلفة، ومناسبات متباعدة، ولا تشعر بسماجة الإعادة، فكأنك تصادف منها معنى جديداً، فربّ آية استشهدت بها مئات المرات في سياقات عديدة، لها في كلّ موقع مذاق أصابت فيه المعنى في الكلى والمفاصل. فالآية المكررة في حقيقتها هي واحدة، ولكن الموقف وليد، والمقام الجديد بعث فيها ظلاً دلالياً كان من قبل عن المعقول مستورا"⁽⁴⁾.

3. نماذج عن ظاهرة التناظر في سورة البقرة:

¹ سورة النبأ، الآية: 4، 5.

² سورة التكاثر، الآية: 6، 7.

³ سورة المدثر، الآية: 19، 20.

⁴ مصطفى شريقن، ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، أغراض وأسرار، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر، 2010/2009، ص 51.

3. 1. النموذج الأول: الآية الأربعون:

يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بَعْدَكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾⁽¹⁾. جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن منافقي المدينة، في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽²⁾. فبعد أن كشف الله مكرهم وخبثهم ومقتهم للدين الجديد، واستبطنهم الشرك والكفر، واستظهارهم الإيمان، ها هو ذا يحذر رسوله وأتباعه من شياطينهم⁽³⁾ الذين لم يتوانوا في الجهر بالكفر، وتكذيب ما جاء به محمد ﷺ.

جاء الخطاب الرباني في صيغة النداء يا بني إسرائيل وإسرائيل هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام⁽⁴⁾ وجواب النداء جاء في صيغة الأمر، "اذكروا"، حيث أمرهم الله أن يذكروا النعم التي أسبغها عليهم أن "أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء، وأنزل عليهم الكتب، وخصهم بالحنّ والسلوى، وفجر لهم من الحجر ماء، إلى ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته"⁽⁵⁾. وجاء في تفسير السعدي للنعم "وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافا، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه"⁽⁶⁾. وكأن شكر النعم لا يتم إلا بصيانة العهد، والوفاء به، وهو الإيمان بالله وبرسوله وإقامة شرعه، ومقابل هذا الخضوع

¹ سورة البقرة، الآية: 40.

² سورة البقرة، الآية: 39.

³ المقصود بشياطينهم هنا هم اليهود، ينظر، سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 31.

⁴ ينظر، في ظلال القرآن لسيّد قطب، التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، تفسير القرطبي.

⁵ تفسير القرطبي، دار الريان للتراث، ج 1، ص 282.

⁶ عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المّان، سورة البقرة.

والامثال، سيكون الجزاء لا محاله "ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشيته أوجبت له خشيته امثال أمره واجتناب نهيته"⁽¹⁾. ونلاحظ هنا النداء اللطيف من الحبار العظيم لبني إسرائيل وقد أسرفوا في الغي بعد الهدى، فيذكرهم بالنعم التي أسبغها عليهم، واحدة تلو الأخرى حتى لا يكون لهم مجال بعد ذلك الحجاج والجدال، وحتى إذا ما لم يرتدعوا ونالهم غضب الله لا يلومون إلا أنفسهم.

3. 2. النموذج الثاني: الآية السابعة والأربعون.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأتي فضلتكم على العالمين، واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ يعود تبارك وتعالى بعد أن حذر بني إسرائيل من عاقبة جحود النعم وتلبس الحق بالباطل، وترك الصلاة وعدم التواصل بالبر، مرة أخرى ليدكرهم بنعمته عليهم، وهي نعمة التفضيل، وهل ثمة نعمة أكبر من أن يصطفيك الرحمن على سائر الأمم؟ "وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعدما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد، وحق عليهم الوعيد"⁽²⁾ والحاصل من سياق الآية ومعناها حسب بعض التفاسير⁽³⁾ أنها جاءت في حق بني إسرائيل دون سواهم، لأن التفضيل شمل آباءهم الذين ركبوا موكب الإيمان وأنبياءهم دون ملاحقة أو غلو، فهو أسلوب تخصيص وليس تعميم. في حين جاءت الآية السابقة في مجملها حمالة أمر ونهي، فالإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من تمام الإيمان وهو أمر لا مرأى فيه، والنهي عن المتاجرة بالدين إرضاء للأهواء وكسبا للمال، مناط التقوى، والنهي عن تلبس الحق بالباطل، وكتمانه، وإقامة الصلاة وإيتاء

¹ المرجع نفسه. سورة البقرة.

² سيد قطب، في ظلال القرآن، ص 84.

³ ينظر، سيد قطب، في ظلال القرآن، تفسير السعدي، تفسير القرطبي.

الزكاة كلّها، وإن خصّ بها سبحانه بني إسرائيل باعتبارهم جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، غير أنّ "هذا النصّ القرآنيّ كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني إسرائيل، فإنّه في إيحاءه للنفس البشريّة، ولرجال الدّين بصفة خاصة، دائم لا يخصّ قوما دون قوم، ولا يعني جيلا دون جيل"⁽¹⁾.

فالتناظر القائم بين الآيتين وما تلاهما من آيات، قائم على أنّ الأولى قرنت شكر النعم بالوفاء بالعهد، اللذين لن يتحققا ما لم يقتربنا برهبة الله وخشيته، ثم تلاهما ما تلاهما من أوامر ونواهي ينبغي على المسلم الامتثال لهما. وبالتالي فالخطاب خرج من الخاص إلى العام، أو من الضيق إلى الواسع.

أمّا الآية اللاحقة، فقد قرن الله فيها "الإطماع في الفضل والنعمة، بالتحذير من اليوم الآخر"⁽²⁾ وهو خطاب خاص يستوجب من المخاطب الأخذ بالأسباب، أسباب التقوى حتى لا يسقط في حبال الندم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾⁽³⁾.

إذاً لما كانت نعمة التفضيل نعمة خاصة، أعقبها تبعيّة فرديّة، وحساب شخصي ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ وهنا مكمن الاختلاف مع ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِي بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾.

3.3. النموذج الثالث: الآية الثالثة والثمانون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وبالوالدين إحسانا وذوي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثمّ توليتم إِلَّا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ بخلاف الآيتين السابقتين، جاءت بني إسرائيل في هذا الموضع مضافا، في حين كان الخطاب في الأوّلين بصيغة النداء. وكأنّ تنويع الخطاب في هذه الحالة فيه من الدلالة النفسيّة ما يجعل المستقبل، بني إسرائيل، يتملّص خشية أن تصيبه سهام الشكّ، فيرتدع، ويعود إلى رشده،

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 1، ص 82.

² المرجع نفسه، ص 84.

³ سورة الشعراء، الآية: 88-89.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، نلاحظ أنّ الله تعالى بعد أن فصلّ في الشرائع التي هي من أصول الدّين، وفصلّ بين أهل النجاة والفوز الذين توفرت فيهم صحة الإيمان، وأثقلت موازينهم صالح الأعمال، وبين الهالكين، أهل النار المشركين بالله، الكافرين به، ها هو يذكر بني إسرائيل من جديد بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الحازم، موظفا أسلوب الوعد والوعيد وذاك بين في حقهم، فـ"من قسوتهم أنّ كلّ أمر أمروا به استعصوا، فلا يقبلونه إلاّ بالأيمان الغليظة، والعهود الموثقة"⁽¹⁾.

وكأن هذه الآية الكريمة جاءت لتمحو أثر الغرور الذي تلبّس بني إسرائيل أن فضلهم الله على من سواهم من الأمم "تفضيل موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم"⁽²⁾ فجاء الخطاب قاسيا يناسب قلوبهم القاسية، أن ذكرهم الله فيه بالوعود التي عاهدوا الله عليها لكنهم نقضوها لضعف أهوائهم وسلطتها على قلوبهم إذ "لم يشهد تاريخ أمة ما شهدته تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكّر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عددا من أنبياءهم، وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية، وكان لهم في كلّ ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليس مثلها أفاعيل"⁽³⁾.

"لقد تضمّن ميثاق الله معهم، ألا يعبدوا إلا الله، القاعدة الأولى للتوحيد المطلق، وتضمّن الإحسان إلى الوالدين، وذي القربى واليتامى والمساكين. وتضمّن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كذلك تضمّن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة، وهذه في مجموعها قواعد الإسلام وتكاليفه. ومن ثمّ تتقرّر حقيقتان: الأولى هي وحدة دين الله، وتصديق هذا الدّين لما قبله في أصوله. والثانية هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدّين، وهو

¹ تفسير السعدي. سورة البقرة.

² سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 84.

³ المرجع نفسه، ص 75.

يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق"⁽¹⁾. ومن هنا نلاحظ أن تشابه الآية مع سابقتيها يكمن في شخص المخاطب الذي لم يتغير، وهو بني إسرائيل، أما المتن فيختلف، ومنه أن الله تعالى في هذه الآية يذكر بني إسرائيل بالميثاق الذي واثقهم به مفصلاً "وهو الميثاق الذي أخذهم عليهم في ظلّ الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه"⁽²⁾ وهو ميثاق لم يتغير ولن يتحوّل، لأنّه من معين واحد. وهذه لم تُفصّل فيما سبق، لأنّ المناسبة استدعت غيرها- كما فصلنا سابقاً- أمّا حين عزم الأمر، فهذا هو تعالى يذكّرهم بهذا الميثاق بندا بندا. ليختمه بقوله ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾⁽³⁾ وهنا تتكشف طبيعة بني إسرائيل التي تتجذر فيها جينات الإعراض عن أمر الله، ومخالفة أوامره دون أن تراعي في ذلك النعم الكثيرة التي أسبغها عليها. "وهو موقف مخجل، تحوّل فيه السياق من الحكاية إلى الخطاب في مواجهة بني إسرائيل بقبحهم وتعتّتهم"⁽⁴⁾.

3. 4. النموذج الرابع: الآية الثانية والعشرون بعد المائة.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إن التشابه الوارد بين هذه الآية، والآية السابعة والأربعين كما أشرنا سابقاً، هو أن هذا الخطاب جاء خاصاً، لأنّ نعمة التفضيل حباها الله بني إسرائيل فقط- في زمن موقوت- أما الاختلاف فيظهر من السياق، فقد فصلنا في الأول، وهنا نلتفت إلى الذي بين أيدينا، وهو أن الله تعالى أراد من وراء هذا التناظر، أن لا يترك مجالاً لبني إسرائيل للتحجج، فقد استنفد معهم كل الوسائل، وأمهلهم ما لم يمهّل أحداً قبلهم ولا بعدهم سبحانه، فجاء هذا الخطاب "كأنما ليهدف بهم الهتاف الأخير، بعد هذه المجاهدة وهذا الجدل الطويل، وبعد استعراض تاريخهم مع ربّهم وأنبيائهم... يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة، وهم على أبواب الإهمال والإغفال

¹ المرجع نفسه، ص 87.

² المرجع نفسه، ص 109.

³ ينظر، محمّد أبو زهرة، القرآن، المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، ص 290.

⁴ ينظر، سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 109.

والتجريد النهائي من شرف الأمانة... أمانة العقيدة... التي نيّطت بهم من قديم.. . وهنا يكرّر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها لهم في أوّل الجولة، يا بني إسرائيل⁽¹⁾.
إنّما دعوة متجدّدة من ربّ رؤوف رحيم، يدعو فيها العصاة، المارقين للعودة إلى طريق الرشاد قبل أن تطوى الصفحة، ويقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾⁽²⁾ وهذه الدعوة لم تأت فيما سبق نظرا لمناسبة السياق.

3. 5. النموذج الخامس: الآية الحادية عشرة بعد المائتين.

﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب﴾ ما يلفت انتباهها في الآية الكريمة هو تغيّر الأسلوب لثالث مرة على التوالي، فبعد أن جاء في الأولين في صيغة النداء، لكون الخطاب جاء مباشرا لـ بني إسرائيل، وفي الثاني جاء مضافا، ها هو ذا أسلوب الأمر يتصدّر الآية، في حين يهّمش المقصود بالحكم وهم بنو إسرائيل، ومثل هذا لم يعرض سلفا، وإن تعلّق الأمر بكيان واحد، وهو بني إسرائيل.

يأتي ذكر بني إسرائيل في هذا الموقف في أعقاب السؤال الاستنكاري الذي يحمل طابع التهديد، حيث المشهد الحقّ، والوعد الحقّ، وحيث الخلائق بأجمعها واقفة أمام الملك الدّيان ﴿لن الملك اليوم، لله الواحد القهار﴾⁽³⁾؛ ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا﴾⁽⁴⁾.

فعلى الرغم من يقين الناس بهول هذا اليوم، غير أنّهم دائمو التسويف في تتبّع طريق الهداية، كثيرو التلكؤ في تتبع الحق، وهنا يلتفت الخطاب القرآني إلى الرسول صلى الله عليه

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ص 141.

² سورة النبأ، الآية: 40.

³ سورة غافر، الآية: 16.

⁴ سورة آل عمران، الآية: 30.

وسلّم، حيث يكلف رسوله بأن يسأل بني إسرائيل - وهم نموذج للتلكؤ والجحود - عن عدد الآيات التي أتتهم لكنّهم تماطلوا، ولم يستجيبوا لداعي الله، وعن النعم التي بدّلوها، وهي نعم السلم والإيمان؛ "والعودة هنا إلى بني إسرائيل عودة طبيعيّة، فهنا تحذير من موقف بني إسرائيل فيه أصلاً، موقف التلكؤ دون الاستجابة، وموقف النشوز وعدم الدخول في السلم كافة، وموقف التعنت وسؤال الخوارق، ثم الاستمرار في العناد والجحود"⁽¹⁾.

فمناسبة السياق استدعت تجدد الإشارة إلى بني إسرائيل خاصة وأن السورة قطعت مرحلة متقدمة من القصّ، فلا بدّ من العودة إلى ذكر هؤلاء الذين جحدوا نعم الله عليهم حتى يتعظ أتباع محمد صلى الله عليه وسلّم، حملة الدّين الجديد، ولا يكونوا مثلهم.

إنّ السؤال هنا، قوله تعالى ﴿سل بني إسرائيل﴾ هو أسلوب من أساليب القرآن البيانيّة "للتذكير بكثرة الآيات التي أتاها الله بني إسرائيل، والخوارق التي أجزاها لهم... إمّا بسؤال منهم وتعنّت، وإمّا ابتداء من عند الله لحكمة حاضرة... ثم ما كان منهم - على الرغم من كثرة الخوارق - من تردد وتلكؤ وتعنّت ونكوص عن السلم الذي يظلل كنف الإيمان"⁽²⁾.

فمدار آية بني إسرائيل هنا هو السلم والأمان والاطمئنان الذي فرطوا فيه من كبرهم، فأبدلهم الله به التّيه⁽³⁾ في الصحراء مدّة أربعين سنة⁽⁴⁾ عسى أن يُخلّق جيل جديد، متطهّر من

¹ سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 212.

² المرجع نفسه، ص 113

³ Muhammed diakho, les récits du glorieux Coran, Editions AL BOURAQ, p.218.

⁴ محمّد بيومي مهران، بنو إسرائيل، التاريخ، منذ عصر إبراهيم حتى عصر موسى عليهما السلام، دار المعرفة، ج1، 1999، ص 259.

رجس من خالفوا موسى عليه السلام، ولم يتبعوا النور الذي أنزل به ﴿قَالَ فَإِنَّهَا محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين﴾⁽¹⁾.
ومثل هذه الإشارة لم تذكر في الآيات السالفة الذكر.

3. 6. النموذج السادس: الآية السادسة والأربعون بعد المائتين 246.

"﴿لم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين﴾ تتشابه هذه الآية مع سابقتها في أسلوب الاستفهام ﴿سل بني إسرائيل﴾ مع ﴿لم تر﴾ وفي هذه الحالة، السؤال موجه إلى الرسول الكريم، وهنا يبدو التناسق العجيب بين الآيتين رغم تباين الموقفين؛ ففي ﴿لم تر﴾ استعراض عيني مشهود، تألف معنى ومبنى، أضفى على المشهد سحرا ما كان ليتحقق لو لا هذا التمازج بين اللفظتين "وأيّ تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا المشهد كما رسمته هاتان الكلمتان"⁽²⁾، في حين تضمّنت ﴿سل بني إسرائيل﴾ شيئا من الوعيد لعدم مراعاتهم لمواثيقهم.

نعود إلى أول الآية، حيث قدّم لها سيّد قطب بحقيقة تاريخيّة يمكن أن تنطبق على آية أمّة، لكن بني إسرائيل فاقوا الأمم في ذلك، وهو "أنّ الله سبحانه وتعالى علم أنّ أجيالا من هذه الأمّة المسلمة ستمرّ بأدوار كالتي مرّ فيها بنو إسرائيل، تقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل، فعرض عليها مزالق الطريق مصوّرة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة

¹ سورة المائدة، الآية: 26.

² سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 364.

وعبرة، ولترى صورتها في هذه المرأة المرفوعة لها بيد الله قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدى الطريق"⁽¹⁾.

فتأتي نهاية سورة البقرة على غير ما بدأت به خطابها لبني إسرائيل، ففي حين كان أسلوب النداء اللطيف، الرامي إلى التذكير هو الغالب، ها هو ذا يتغير إلى أسلوب قهركم وانتقاص، وبعدها كان مباشرا، ها هو ذا المولى عز وجلّ ينادي رسوله الكريم، في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ **تر** يا محمد، إلى الملا من بني إسرائيل، وكأنّ الله يواسي محمدا صلى الله عليه وسلّم في عدم الاكتراث بالحملة المسعورة التي تشنها اليهود بين صفوف المسلمين حتى يدبّ الخوف، وتخور النفوس، فتميل كل الميل إلى ما يضره مريضو النفوس. لقد أصبح الخطاب في نهاية السورة مرتبطا بعليّة القوم الذين ينبغي أن تتوفّر فيهم الحكمة، وتصطبغ قلوبهم بالإيمان تصديقا بما جاء به موسى عليه السلام، لكن موقفهم لم يعكس وجاهتهم التي يظهرونها نفاقا، وفي ذلك جاء في تفسير السعدي أنّ الله قد قصّ على نبيّه "قصة الملا من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملا بالذكر، لأنّهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنّهم أتوا إلى نبيّ لهم بعد موسى عليه السلام، فقالوا له : ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ... فقال لهم لعلكم تطلبون شيئا وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها واعتمدوا على عزمهم ونيتهم التي لم تكن حسنة... فجنبوا عن قتال الأعداء، وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجن إلا قليلا منهم... فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله"⁽²⁾.

¹ سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 261.

² تفسير السعدي. سورة البقرة.

ومن الآية الكريمة نستشف أن ذكر بني إسرائيل في هذا السياق ارتبط بموقف لا يشبهه موقف آخر في الآيات السالفة الذكر، عدا في صيغة الأمر، أما ما تبقى من أحداث ومجريات فقد تفردت به هذه الآيات دون سواها.

لقد تفردت هذه الآية بقصة نبا خيرة القوم الذين طلبوا من نبيّ لهم بعد موسى عليه السلام أن يجعل لهم ملكا يسوسهم إلى القتال في سبيل الله، باعتبار أن القتال يحتاج إلى قائد يسوس أتباعه، وذلك بعد أن ثارت فيهم حمية الدين والعقيدة، لكنّ النبيّ استوقفهم، ممتحنا نواياهم "أنتم الآن في سعة من الأمر، فأما إذا استجبت لكم، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة، ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها"⁽¹⁾ وقد كان ما كان منهم من ظلم واستكبار وتولّ.

4. خاتمة:

إنّ السياقات التي جاءت في كنفها بني إسرائيل سياقات متباينة، عرضت في جوّ مشحون، يوحى في أغلبه بالنفور والتعالي والكبر والقسوة، تفاوتت درجاته بين موقف وآخر، وبين سبب نزول الآية وآخر.

وإذا تأملنا هذه التناظرات، التي توالى فيها ذكر بني إسرائيل سواء أكانت في صيغة النداء، وهي الصيغة المهيمنة في هذا الخطاب، أم في صيغ عداها، نكتشف أنّها جاءت لغرضين اثنين، أمّا الأوّل فهو كشف طبيعة بني إسرائيل التي اجتمعت فيها كلّ الموبقات من جحود نعم الله عليهم، إلى تمردهم على شرائعه السمحة إلى غرورهم وتكبرهم على أنبيائهم، وإلى ما يعدّ ولا يحصى في حقهم، "وهذا يدلّ على أنّ الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم، ولم يتمكن من ضمائرهم، ومشاعرهم، ولم يثمر فيهم الثمرة الطبيعيّة لكلّ شجرة طيبة، وإنّما كان إيمانهم

¹ سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج.1، ص366.

موسى إيماناً بإمامته وزعامته، لا إيماناً بالله الذي خلقه وسوّاه⁽¹⁾ وأما الآخر، فالقصد منها هو مواساة الرسول صلى الله عليه وسلّم في تبليغ رسالته، وتثبيت قلبه وقلوب المؤمنين⁽²⁾ حتى لا يكون في صدره عليه الصلاة والسلام ضيق مما يُمكر كفار قريش، وتثبيتاً له على دين الحق، باعتباره أوّل وآخر نبيّ بعث لهؤلاء، في حين أنّ بني إسرائيل قد خصّهم الله بالأنبياء بين ظهرانيهم تترأ، لكنهم فسقوا وخرجوا عن دين التوحيد.

ومن خلال هذه النماذج، نلاحظ أنّ معنى التناظر يبنى أساساً لتحقيق قصد بذاته، وهو تلوين الأسلوب وتصريف القول في ثوب جماليّ تفرّد به القرآن الكريم دون سواه من الكتب السماويّة⁽³⁾.

إذن، لا ريب **﴿أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾**⁽⁴⁾، فكلّ ما جاء فيه من معانٍ وتراكيب وألفاظ ودلالات وأحكام إنّما جاء فيه باتزان واقتدار وأنّ **﴿كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾** **﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾**، فكل صغيرة ودقيقة وكبيرة إلّا وأودعها الله سرا من أسرارهِ⁽⁵⁾، فجاءت في صيغة معينة دون أخرى لحكمته تعالى، وإلحاطته سبحانه بما لم يحط به أحد من العالمين. وما هذه الأساليب البلاغيّة إلّا سر من أسرارهِ، ولعلّ وفرتها وتنوّعها جعل

¹ محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل، التاريخ، منذ عصر إبراهيم حتى عصر موسى عليهما السلام، دار المعرفة، ج1، 1999، ص 419.

² ينظر، صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، ص 53.

³ ينظر، محمد خطّابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991، ص 199، 205.

⁴ سورة البقرة، الآية الأولى.

⁵ عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، دار الكتاب المصري، ط2، 1983، ص 171.

للتناظر مساحة رحبة في القرآن الكريم، حيث تبرز المعاني منسجمة تمام الانسجام مع مضامينها، وحيث تتكثف الدلالات، رغم تواتر اللفظ أو التركيب كما هو الشأن مع بني إسرائيل.

5. قائمة المراجع:

القرآن الكريم، برواية ورش.

• المؤلفات:

1. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، تفسير القرطبي، دار الريان للتراث، د ت.
2. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2013.
3. بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية، مج 2، ط1، 1977.
4. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الأصول العلمية، تركيا، مج1، ط1، 2019.
5. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط1، 1959.
6. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.
7. عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، دار الكتاب المصري، ط2، 1983.
8. فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مج 2.
9. محمد أبو زهرة، القرآن، المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، د ت.

10. محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل، التاريخ منذ عصر إبراهيم حتى عصر موسى عليهما السلام، دار المعرفة، ج1، 1999.
 11. محمد خطّابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991.
 12. محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1987.
 13. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.
 14. Muhammed diakh, les récits du glorieux Coran Editions AL BOURAQ.
- الأطروحات:
15. مصطفى شريقن، ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، أغراض وأسرار، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر، 2010/2009.